

## قطرة مطر

## ريتا عودة

لكلِّ نهايةٍ بدايةٌ ما . وبدائيتي أنا كانت حين قررتُ أن أكونَ متفردةً في هطولي، فلا أتبدّد عبثاً .

نظرتُ إلى الأرضِ أبحثُ عن مكانٍ أهطل فيه .

أبصرتُ مجموعةً من الأطفال يتقافزون حُفاةً فوق بقع الماء، يطاردون كرةً، ويردّدون بفرح: «طاح المطر على الطين، الله يسلمُ فلسطين!»

وأبصرتُ كهلاً قرَفصَ قريباً منهم يرُقّب الطيورَ الصغيرةَ في السماء، ويقول في سرّه: «متى تتلوّن أحلامُ اليُوساء!» حطّت الكرةُ فوق أنفه، فاستيقظ على الأطفال وهم يسقطون حول عنقه بحميمية، كلُّ يَفُظ من وجنته قبله الصباح .



عَبَرْتُ بين الأزقة الموحلة وتسمّرتُ قرب غرفة طبيبٍ نحيل رأيتُه يرتدي ثوبَ البرّ .

كان يرُقّب يدي امرأةٍ عجوزٍ تحاول فكَّ صرّةٍ لتغوص داخلها وتَحْفَن منها ملءَ راحتها قطعاً نقديةً صغيرةً تضعها على المنضدة ثمناً للكشف .

- ضئبي نقودك، يمّا . الدنيا لسّه بخير!

تقع العجوز، بثوبها الأسود المبرّش بالقُطْبِ الفلسطينية الكالحة، فوق عنق الشاب تُقبّله وتدعوه بطول العمر ووافر الصحة، فيسقط مندليها الأبيض فوق كتفه .

وأواصل أنا المسير .



رأيت فتاةً تفتح نافذةً، فاقتربتُ .

عادت إلى الداخل تسيّر بخطوات متلعثمة، فأدركتُ أنّها مكفوفة . جلستُ قرب المرأة العجوز تقول لها: «يمّا، جاي على بالي اليوم طبخة فريكة.»

تسيّرُ العجوز نحو معطفها تتحسس الجيب، فلا تجد سوى بضع ورقات نقدية، مع أنّ الشهر ما زال في أوّله . لكنّها تقول لسعدة: «تعالِي نَنَمُ قليلاً، وربك يفرجها.»

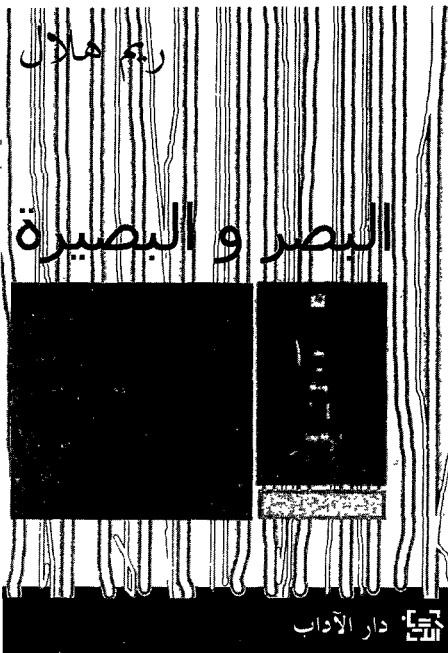
عندما تستيقظ تعثر على دجاجة في المطبخ، فلا تشغل بالها بمصدر رزقها، بل تشترع في إعداد الطعام . وبينما هي منهمكة في عملها، يصل ابنها، فيخبرها أنّ أحد الرجال زار المشفى حيث يعمل هو مساعداً، وفي يده بعضُ الدجاجات للطبيب الذي استأصل الرصاصة من أحشائه دون أن يتوفر له ثمنُ العلاج، وحين مرّ بسعد رق قلبه وأعطاه دجاجة .

سقطت الأم على عنق ابنها، فسقطتُ ضفيرتها الشائبة فوق عنقه . طوقته كالحبل السريّ، وقبّلتُه بفرح وهي تدعوه بوافر الصحة .



بانتهاء، تابعتُ رحلتي.  
 رأيتُ امرأةً عجوزاً تكاد بشرتها تكون كقشرة برتقالة جافة.  
 كانت قد قرفت فوق الأرض، تعلق الهتافات من حولها، كلُّ يستنكر هدمَ منزلها على طريقته.  
 أما هي فقد كانت تراقب شجرة الصبار، تُعجب للغبار الذي تكاثف فوق عروقها من حجارة المنزل التي تناثرت في كل مكان، ومعها  
 تبعثرت أحلامها، ذاكرتها، أمانيتها.  
 كانت تمنى ولو عبرةً واحدةً تجفّ حرقه قلبها.  
 نظرتُ إلى فوق، من حيث يأتي عونها.  
 لمحتُ عصافير كثيرةً، بعيدةً، بعيدةً، بعيدةً.  
 تنهدتُ بصمت.  
 - آآخ.. كيف تحطّ العصافير فوق طبق القلب إذا كانت الأرض غارقةً في الطوفان؟!  
 بغتةً، التقتُ نظراتنا. جاشت عواطفنا نحو هذه المرأة / الزيتونة.  
 قررتُ أن أهبط إليها.  
 قفزتُ داخلَ عينها، وهناك بدأت أتصاعف بصمت.  
 فجأةً، تملكّت المرأة رغبةً جامحةً في البكاء  
 وهكذا، هطلتُ عن طيب خاطرٍ فوق درب الأمها.

فلسطين



يحكي هذا الكتاب عن تجربة المؤلفة الكفيفة البصر منذ ميلادها حتى حصولها على درجة الدكتوراه، وما تخلل هاتين المرحلتين من آلام وأفراح قد تمثل في عمقها وحرارتها ونزعتها الإنسانية ظلماً لجوهر الحياة. كل ذلك في إطار سرد روائي شفاف.

ولدت المؤلفة في اللاذقية وتعمل الآن مدرسة للنقد العربي الحديث في كلية الآداب، قسم اللغة العربية بجامعة تشرين.